نحو العشرين ديناراً فلما استقلتها قال: ليس لي الا هذا وجميع ما يبدي انا فيه خازن للمسلمين لا امنونهم فيه ولا اخوض نار جهنم لاجلك . وكذلك كان خليفته صلاح الدين يوسف ابن ايوب فانه كان على كثرة فتوحه وبسط يده على ذخائر وكنوز عظيمة لم يدخر منها شيئاً وفرقه في وجوه المبرات واقامة المعالم الخيرية حتى اذا لحق بربه لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري واربعين درهما ناصرية ولما بنى له احد رجاله في دمشق قصراً مشرفاً بهجاوبخه على عمله ولم يرض ان يسكنه لما انفق عليه من النفقات الفاحشة .

وبالجملة فتاريخ الامة يثني على المسرفين اعمالهم كما ينادي بالثناء على المقتصدين من رجالها فان جاء مثل ابن عباد وابن ابي عامر والقاهر والمستكفي والحسن بن سهل فقد جاء امثال عمر بن عبدالعزيز ونور الدين وصلاح الدين وكل منهم ذكر بعمله ولقي جزاءه في قصده واسرافه .

الانتحار

سلامٌ على الدنيا سلام مودع رأى في ظلام القبر انساً ومغنما

الانتحار واسبابه

الانتحار قتل النفس . ولا يعمد المرء اليه حتى تضيق به الدنيا او تضيق به نفسه . ولا يبعث الانسان على الانتحار باعث اشدُّ من ضياع امل له كان يعلل به قلبه او نعمة زالت كان يمرح في نعيمها او مال فقده على غير رغبة منه او أمر وقع فيه وهو لا يرجو منه فكاكاً او ذنب جناه ولا يرى له من الجزاء عليه خلاصاً او غرام كوى فؤاده وهو لا يرجو ان يطفيء ناره بماء الوصال .

وهناك باعث اشد من تلك البواعث واعني به سوء التربية ونقص التهذيب . فان النفس الساذجة كالسيف البتار الذي اغفلته الصياقل او كالحجر الكريم لا يبدو بهاؤه حتى يزيل صدأه العامل الحاذق فيبهر الابصار بنوره . والتهذيب يصقل النفوس و يظهر الفضيلة الكامنة .

وانك ترى اخا الجهل اذا ثارت براسه سورة الغضب ولم يكن الانتقام طوع بنانه اواجب حبّا اخذ برشده وغشي على بصيرته ولم ينل اربه او فقد مالاً قليلاً تعب في الحصول عليه يضيق به عقله و يثقل نفسه بيده

الحكماء والانتحار

وابعد الناس عن قتل النفس اهل الحكمة والعلم فانهم يرون الانتحار جبناً وضعفاً في العزيمة وهناً في الهمة . وهم اذا لم يبلغوا مناهم عادوا فاملوا واذا زالت نعمة كانوا يرفلون في حللها قنعوا بآثارها وان فقدوا مالاً فللمال ادنى ما يتطلبون وان نالهم اسر علموا بان

لكل شيء مدة وتنقضي ما غلب الايام الا من رضي

وهم اشد الناس احجاماً عن الذنوب فأنى لهم ان يجرموا فيحتويهم القنوط ؟ اريد بأهل الحكمة اولئك الذين نالوا من العلم منالاً كبيراً فاسفرت لهم الحقيقة وعلموا بخلود النفس .

الفلاسفة الماديون والانتحار

ومن المفكرين فريق لا يقول بالنفس والخلود ويرون ان الموت نهاية كل حي . وهذا الفريق يؤثر الموت على الحياة والفناء على البقاء ويرى ان الحياة شر وتعذيب وفي الموت كل الراحة والهناء . ومن انصار هذا الفريق فريق الماديين وهم يقولون بان النفس بدعة لا وجود لها وان الكون خلق من المادة . انما توجد في الخلق الحياة بالحركة وغيرها من القوى الكامنة في المادة . ومنهم الدهريون القائلون بان «العالم ارحام تدفع وارض تبلع»

وان المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

وان امر الانسان في حياته موقوف على صروف الزمان . هؤلاء باسرهم يقولون بتفضيل الموت على الحياة ويرون ان الحياة ذنب جناه الناس على النسل . وقد نشأت هذه المبادىء عند الفرس والبوذيين وغيرهم من الامم التي انى عليها الزمان . فلما اشرقت شمس الحكمة في الغرب وابتعث ازهار المدنية الحديثة قام من الغرب اناس يدعون الى تلك المذاهب والبسوها لباس الغلو الشديد . حتى حدث الحال بمعضهم ان اسسوا جمعيات بعدان ائتمروا بينهم على الانتحار بالتعاقب فينتظم الفرد في سلكها على ان يقتل نفسه اذا انتهى اليه الدور واصابته النوبة .

الجهلاء والانتحار

وترى الجاهلين وهم لم يسمعوا بالخلود ولم يعوا بان لهم نفوساً زكية لها بالخالق اتصال ولم يعلموا بمبدإ الماديين ولم يبلغهم مذهب الدهريين اذا سئموا تكاليف الحياة (واي الرجال المرء ؟) عمدوا الى نفوسهم فاختطفوها من بين جنوبهم وهم على يقين من انهم بالقوت عذاباً اليماً قائلين ولعذاب الاخرة خير لها من تكاليف الاولى

كتاب القصص والانتحار

يلعب كتاب القصص بالنفوس لعباً . ويندر ان تقع لك قصة لا تنتهي بقتل نفس اليأس استحوذ على رجل او حب احدث في قلبه جنوناً . ولقد تنال تلك الصغائر من صغار العقول منالاً كبيراً فتمهد لهم السبيل الى ارتكاب مايرتكبون .

على انه ليس في كتاب (الف ليلة وليلة) وهو اشهر القصص في لسان العرب قصة تنتهي بقتل النفس . وقد يقاسي احد ابطال ذلك الكتاب اهوالاً تشيب لها الولدان ولا يخطر على قلبه قتل نفسه .

واخبار العرب في كتب الادب وهي كثيرة غزيرة فيها اخبار الحرب والغرام والثأر والانتقام لا تجد فيها خبراً ينتهي بقتل النفس . انما تسرب الينا الاقتداء بابطال القصص في قتل النفس من تلك القصص الغربية التي يتحفنا بها المعربون

فن التمثيل والانتحار

وانك لا تشاهد رواية مؤلمة حتى تجد لقتل النفس فيها اثراً كأنه هو ما يعمد اليه الناس وقت ضيقهم وهم لا يعمدون الى خالقهم او يثوبون الى رشدهم .

واشد تلك الروايات في النفس وقعاً رواية (شهداء الغرام) وخلاصتها ان فتىً يعشق فتاة . ويقف العداء في سبيل قربهما . ثم يحدث انه يقتل قريباً لها فينفيه الملك فتحزن عليه حبيبته وتجرع كأساً ينالها بعده سبات عميق فيدفنها اهلها . ويأتي حبيبها الى قبرها زائراً على غير علم بانها لا تزال حية ترزق . واذا ما رأى قبر حبيبته ورأى جمالها الفتان قد ذبلت زهرته يجرع سماً زعافاً فيخطف روحه الموت الزؤام وتفيق حبيبته من سباتها فيأخذ بصرها حبيبها فتراه جثة هامدة قد اطفأ الموت شعلتها فتقتل نفسها

وغير هذه من روايات شكسبير رواية القائد المغربي . فانه تلحقه غيرته على امرأته من رجل غريب ويوقع بينه وبينها رجل من اهل الشر والفساد فيخمد انفاسها . ثم يمحص الحق ويدري بانها بريئة . وان شرفه سليم لم يدنه اذى فيقتل نفسه غيظاً من نفسه

ومن روايات فيكتور هوجو رواية طبق الخافقين ذكرها واشتهر امرها بين اهل الفضل والادب اسمها (رو يبلاس) وخلاصتها ان اميراً من امراء الاسبان رأى ان الملك صائر الى الزوال لان الملك كان كثير التنقل والارتحال والملكة من ربات الجمال فأتى في بعد الملك بغلام من السوقة يعي الطلعة وقال انه اخوه فاحلته الملكة محل الاكرام والتبجيل واحب الغلام الملكة حباً مبرحاً هذب نفسه ولطف من خلقه وسما به سمواً كبيراً . ورأى

روبيلاس الوزراء يوماً يتفاوضون فيما بينهم على مال المملكة فمنعهم فسمعته الملكة فاحتقدته وقربته اليها . ولما علم الامير المحتال بذلك جمع بينهما تحت مدارع الظلماء على غير علم منهما بقصده ثم فاجأهما ووصم الملكة بوصمة العار وذلك لتتخلى عن الملك ويتفرد به . فحز الامر على روبيلاس وخلع لباس الامراء وقال انك لقبت الملكة مع غلام من بطانتها ولم تجدها مع امير يظن به وبها السوء . فذعر الامير الكبير لفعله فاخذ الغلام بسيفه وقتل به الامير ثم جرع السم فارتاعت الملكة وصرخت بملء فيها (روبيلاس) فيقول وهو يتضاءل بين يدي الموت :

« مولاتي الرحمة والرضوان »

ثم يغلبه الموت على امره . :

قصيدة من الشعر

وحرام على حافظ ابراهيم ان ينظم قصيدة تهيج النفوس الساكنة وتحرك الشر في القلوب وتحمل من نالت منه الخطوب على ان يقتل نفسه اذ قال حفظ الله نفسه :

سعيت الى ان كدت اتعل الدما ... وعدت وما اعقبت الا التندما
سلامٌ على الدنيا سلامُ مودع ... رأى في ظلام القبر انساً ومغنما
اضرَّت به الاولى فبام باختها ... وان ساءت الاخرى فويلاه منهما
فهبي رياح الموت نكباً واطفئي ... سراج حياتي قبل ان يتحطما
فيا قلب لا تجزع اذا عضك الاسى ... فانك بعد اليوم لن تتألما
وياعين قد آن الجمود لمدمعي ... فلا سيل دمع تسكبين ولا دما
ويا صدر كم حلت بذاتك ضيقة ... وكم جال في انحائك الهمُّ وارتمى
فهلا ترى في ضيقة القبر فسحة ... تنفس عنك الكرب ان بت مبرما

اكابر الرجال والانتحار

ولقد قام فريق من اهل الطب وقالوا بان الجنون اقوى اسباب قتل النفس . وعارضهم في ذلك آخرون وقالوا بان من يحفظ التاريخ ذكر انتحارهم كانوا من اعقل الناس واكبرهم نفوساً

ومن هؤلاء الرجال العظام الذين سعوا الى حتوفهم باظلافهم وخطفوا ارواحهم باسيافهم القائد القرطجني الشهير هنيبال فانه بعد ان هزم جنود الرومان شر هزيمة عاد فافل نجم سعده ورافقته الخيبة ولازم جنده الفشل والهزيم . فأوى الى ملك يحتمي به ثم لم تطق نفسه ان تبقى على الذل فانتحر

ومنهم كاتو القائد الروماني الشهير . وكان ذلك القائد من انصار بومبيوس الذين يحنون اليه بحبل الصداقة والاخلاص وكان من المتألبين على قيصر العاملين على اخذاله فلما اخلفت الايام ظنه وبات قيصر والنصر حليفه واندحر بومبيوس وانصاره شق الامر على كاتو وابت نفسه ان يبقى على الضيم فطعن نفسه بخنجره طعنة اودت بحياته .

ومنهم اوتو القيصر الروماني الكبير الذي تألبت عليه جنود الالمان وردوه مخذولاً محسوراً فابت نفسه العار واختار الصارم البتار . ووجد عليه اهل مملكته فقتل كثير منهم فتوسم حزناً وامى

ومن له المام بالتاريخ الحديث يذكر ان فريدريك الكبير بعد ان ظهر على اعدائه ظهوراً كبيراً عاوده النحس ولزمه الفشل وتألبت عليه ثلاث دول كبرى وتخلى عنه محالفوه فاحتواه اليأس ونزل منه القنوط وعمد الى الانتحار . ولكنه عاد فغلبته على امره بقية عزيمة فيه وتحول عن قتل نفسه بنفسه

نابوليون لم ينتحر

ولا يسعنا الا ان نذكر نابليون ذلك الملك الكبير صاحب الحروب والغارات ورب القتال الذي نال من الامم مالم ينله الاسكندر او هنيبال فانه بعد ان كان من امره ما كان واسرته انكلترا مالكة البحار وقذفت به الى تلك الجزيرة القصية التي يحيط بها « بحر الظلمات » احاطة المطبق بالاسير وبقي فيها في ذل وانكسار تحت حكم رجل جاف الطبع غليظ القلب لا يعبأ باكاليل النصر ولا تهمه تيجان الفخار ست سنين طوال لم يدر في خلده امر الانتحار . فما اكبر تلك النفس في النصر والاسر؟

انتحار المرأة

والرجال الذين يقتلون نفوسهم اكثر من النسوة اللاتي يقترفن الانتحار لان الرجل اقرب الى متاعب الحياة وهمومها وهو الذي يلقى آلام العيش ويذوق اصناف العذاب فهو المارب الطالب الراغب الراهب الهالك النادب . وهو الذي يخوض غمار معترك الحياة فاما فائزاً منصوراً او مخذولاً محسوراً .

اما المرأة فهي سيدة الرجل ومليكة قلبه يسعى ليأتيها برزقها وينصب ليصونها من الشقاء فهي ابعد منه عن مصائب الدهر وطوارق الحدثان .

وانك لترى ان النساء لا يعمدن الى الانتحار فراراً من فقر او هرباً من عار اوحرصاً

على شرف من ان تناله يد الاذى او حزنًا على مال مضيع او اسفًا على نعمة عقد للاعداء لواؤه ولكن لحب دب في النفس دبيب الجنون في العقل او غيرة نالت من قلوبهن ماتناله النار من الحطب .

وكأن المرأة لا تزال تخشى على جمالها من ان تذبل زهرته حتى بعد الموت فهي تقتل نفسها بما لا يمس حسن وجهها فتعمد الى السم او الغرق . واشهر من قتلن نفوسهن من النسوة الملكة كلوبطرة . فانها بعد ان مات عشيقها (انطونيوس) وامست الدنيا في عينيها اضيق من سم الخياط عمدت الى قتل نفسها . فدعت اليها وصيفة لها وقالت البسيني حلة الملك وضعي فوق رأسي تاج السلطان فقد آن لي ان اموت وكنت اهوى ان اكون من الخالدات اما الآن فما اسهل الموت وما احلاه وما امرّ العيش وما اقسى الحياة . آه .. اني اكاد اسمع صوت حبيبي وهو يدعوني اليه . واراه يهمّ بنفسه فاذا رآني اسعى نحوه تبرق أسرته . ثم اخذت بالحية وقالت اليّ ايتها الحية الفانية حلي عقدة حياتي . ووضعت فمها على صدرها وحنت عليها حنوّ ام مرضع فغرقت الأفعى فاها كأنها تبسم لها ورضعت من ثديها ماء الحياة .....

ولما جنت اوفليا عشيقة هملت عمدت الى قتل نفسها فارخت غدائر فرعها ووضعت فوق رأسها اكليلاً من الزهور وسعت الى غصن شجرة على شاطئ النهر وجلست عليه واخذت تهز بنفسها طربًا كما تهتز الطيور على الاغصان وهي تشدو وتغرد فلم يقو الغصن على حمل قدها وهوى بها فعانقها الموت على صدر الماء .

على ان هناك سبيلاً الى الموت ايسر من السم والغرق . روى رجل رأى فتاة سلكت ذلك السبيل قال : « ودفعنا بالباب فهبت علينا من الحجرة روائح الازهار وعطر الرياحين ونظرنا الى الفراش فاذا به مثقل بالفل والياسمين والورد والنسرين . وبصرنا بالفتاة وهي بين خمائل الزهور وقد نامت ملء جفونها ولكن ورد خدودها لم يذبل فخلناه بعض الزهور الزاهرة . »

الانتحار داء من ادواء المدنية

قال ابن خلدون : « ان البداوة اقرب الى الخير من الحضارة وسبب ذلك ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شر واهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه . واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه في المقدار الضروري

لا في الترف ولا في شيء من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل منهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقل بكثير فهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد مما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها »

ونزيد على قول ذلك العالم الجليل ان في جسم الحضارة شوائب وادواء البداوة سليمة منها . فان اهل الحضر يجمعون في طباعهم بين الانانية والاستئثار بالنفع والكذب والنفاق والسرقة فتنزع نفوسهم الى الشر والفساد واما اهل البدو فهم ابعد عن تلك العيوب والمثالب لان الخبرات عندهم وافرة فلا يتسرب الطمع الى نفوسهم ولا يجد حب الذات من قلوبهم مكاناً رحيباً .

وليس الانتحار الا داء من ادواء المدنية الحديثة يلجأ اليه كل يائس ظلمهُ ذلك المجتمع الانساني واهمل شأنه وهو في حاجة اليه .

ولذا ترى قتل النفس يزداد رويداً في كل البلدان التي انتشرت فيها المدنية وهو على الاكثر في المدن الكبرى حيث معترك الحياة اشد بأساً ونار الجهاد في سبيل هذه الحياة الدنيا احمى وطيساً وعلى اقله في القرى الصغيرة وبين الفلاحين وحيث يجد كل انسان عملاً يعمله هو . وحيث لا ترى المرأة تتبرج وتتزين فتأخذ بعقل الرجل وحيث لاحانات يأوي اليها الفتيان فيزيدون جنونهم بما لديهم من المال القليل وحيث الطبيعة ساكنة هادئة تشهد بجمال الخالق وقدرته وكماله .

هل الانتحار عدل ؟

لا يستطيع الكاتب ان يبوح برأيه في امر قتل النفس بعد ان بينه هذا التبيين ويجدر بالقاريء ان يحكم على الامر بنفسه . وغير نكير ان الحياة كلها شر وان الخير فيها صائر الى الزوال . . وان ذوي المفسدة ينالون مالا يناله اهل الخير والفضل . ونعلم ان حب الحياة فطرة في الانسان فهو لا يعمد الى قتل نفسه الا اذا بلغت به الهموم والاحزان او الفقر والفاقة مبلغاً شديداً او نال منه داء لا يرجى شفاؤه او غرام مبرح منالاً كبيراً او ابت نفسه الذل بعد العز . وتلك امور لا يعرفها الا من يذوق مرها لان الشوق لا يعرفه الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها . ونحن نعلم ان احد هذه البواعث يحدث في العقل جنوناً فيقتل المجنون نفسه . فهلا التمسنا عذراً للمجانين ؟

القاهرة

محمد لطفي جمعة